على هامش البداية

محمود درويش

لعل بعض الكتاب العرب قد بلغ حد المبالغة في توجيه الاهانة الى أمته عندما كان يمجدها . فان حصر مفهوم انبعاث الامة او عودة الروح ــ كما هو شائع القول الآن ــ في معنى واحد هو الجرأة على مجرد اطلاق النار على العدو هو اعلان عن مدى فقر الامة التاريخي من جهة ، ووضع الرصاصة مقياسا وحيدا لاصالة الامة العربية وحضارتها .

ليس هذا مجال البحث عن معنى مفهوم انبعاث الامة ودور حروب التحدي فيه . ولكن يجب الاسراع في القول ان هذا المقياس الوحيد الضيق حتى الخنق كان نجاحا صهيونيا في نقل عدوى دائها التاريخي الى نفوس البعض منا . وان أحد محتويات المعركة التي نخوضها الآن ضد العدو هو القضاء على بطلان هذا المقياس الوحيد الذي نجح في اقامة الكيان الاسرائيلي من ناحية ، وعبأ هذا النجاح بمقومات فشله التاريخي من ناحية أخرى .

ومهما تكن نهاية المعارك العسكرية التي تحمل من الجانب العربي ما هو أعمق بكثير من المعنى العسكري ، فان معادلة النجاح ــ الفشل الذي تنطوي عليه التجربة الاسرائيلية ستتعرض لمناقشات فكرية ، داخل كيان العدو ، كان يعتبر مجرد طرحها تطاولا على قدس أقداس الصهيونية ايديولوجية وممارسة .

قد تكون هذه الحرب انبعاثا للامة العربية وتجديد روحها اذا كانت بداية عربية ، ونهاية اسرائيلية في آن واحد .

اننا نسرع ، على ما يبدو ، الى نفض أيدينا من كارثة حزيران . وأكثر من ذلك اننا نحاول اسقاطه من التاريخ . وليست هذه الظاهرة غير تعبير عن الروح التبريرية المتأصلة في فكر الكثيرين منا . سيسعى البعض الى البرهنة على أن حزيران لم يكن أكثر من شهر طارىء على الاعوام العربية . وسيسعى البعض الى البرهنة على ان حزيران لم يكن نتاج خلل أو خطأ في بنية حياتنا السياسية والاجتماعية والفكرية . وبذلك نستوحي من مجرد الجرأة على اطلاق النار على العدو دليلا على شرعية أخطائنا التي كانت من أسباب هزائمنا . وهذا يشكل ، بحد ذاته ، اتجاها منافيا لاتجاه انبعاث الامة .

البداية الجديدة التي تطمح الامة العربية الى أن تنضج اثناء الحرب ، وتتجسد في اعادة النظر بأنماط حياتنا على كافة المستويات وفي كل الميادين ، والتي تنطوي على التنازل عن أفكار قديمة وقناعات خاطئة ــ هذه البداية الجديدة هي التي تغني روح الامة وتثريه بتعامل جديد مع العصر ، ولا تعيد الروح الى الامة ، لان الامة في ذروة مآسيها وكوارثها لم تفقد الروح .

هذه هي البداية الجديدة التي تتشكل أثناء تجربة الجماهير العربية في خوض معارك